

بسم الله الرحمن الرحيم

الحوار مع المشركين في السنة النبوية (قضايا ونماذج من مرحلة التأسيس)

إعداد الدكتور: محمد الوثيق

العنوان البريدي: المملكة المغربية-مدينة: إنزكان-الحي الحسني- ساحة النصر- رقم:

١٨

العنوان الإلكتروني: HARITH2005 @MAKTOOB.COM

الهاتف: ٠٦٦٥٥٠٧٠٣

رقم الفاكس (وهو رقم كلية الشريعة مقر العمل): ٠٢٨٢٤١٢٢٨

المبحث الأول: مدخل نظري

الحوار مع الآخر في المنظومة الإسلامية مسلمة من المسلمات، وقاعدة من القواعد القرآنية الأساسية، وقيمة من القيم الحضارية في تاريخ الأمة. فهو شرع ملزم في المرجعية المؤسسة؛ القرآن، وسنة حاضرة في الممارسة اليومية في السيرة النبوية، وتقليد متداول في الفكر الإسلامي...

وإنما اختارت هذه الورقة مقارنة هذا الموضوع من خلال السنة النبوية في تعاطيها مع المجتمع المشترك من ملاّ قريش- وركزت في ذلك على تلك الحقبة الزمنية من البعثة النبوية- لكي تثبت الصبغة التأسيسية التي اكتسها الحوار في الإسلام عامة وفي السنة خاصة منذ الوهلة الأولى التي شرع فيها في وضع الأسس الكبرى لهذا الدين الجديد. وهي أسس وأصول لا تقبل النقاش أو المراجعة أو النسخ. ومعلوم أن كل الأصول المكية أبدية لم ينسخ منها شيء- على خلاف ما قد يتبادر للذهن- يقول الإمام الشاطبي: لما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية والقواعد الأصولية في الدين، على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل لا كثير؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات وقوعا وإن أمكن عقلا. ويدل على ذلك الاستقراء التام أن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات. وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء، بل إنما أتى بالمدينة ما يقويها ويحكمها ويحصنها. وإذا كان كذلك لم يثبت النسخ لكلي البتة. ومن استقرأ كتب الناسخ والمنسوخ تحقق هذا المعنى، فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها، والجزئيات المكية قليلة^(١)

وإذا كان الأمر هكذا فلا التقات للرأي الزاعم بأن الحوار قد نسخ بعد الهجرة إلى المدينة واستبدل به أسلوب المواجهة العنيفة، وهذه المقولة من بنات فكر الكاتب السوداني محمود محمد طه صاحب المذهب الجمهوري، يقول من بين ما يقول: ...ما نبشر به من تطوير الشريعة بارتفاعها من النصوص الفرعية إلى النصوص الأصلية، فالفرعية الآيات المدنية التي اعتبرت صاحبة الوقت في القرن السابع، واعتبرت، من ثم، ناسخة للآيات المكية. والأصلية هي المكية التي اعتبرت يومئذ أكبر من قائمة المجتمع، فلم يبق عليها التشريع واعتبرت في حقه منسوخة وأرجئت إلى أن يجيء وقتها^(٢).

إن المتأمل في أحداث السيرة النبوية في المرحلة المكية وأشكال العلاقات القائمة بين الجماعة الإسلامية والمجتمع المشترك سيكشف أن الإطار الضابط لهذه العلاقات منبثق عن فلسفة الحوار، وسيستفاجأ -ربما- بأن هذا الحوار اكتسب مفهوما مطاطا شمل مجالا واسعا واستثمر مداخل عديدة لاقتحام حمى الآخر من أجل التواصل مع عالمه، الفكري هادفا إلى نسج خيوط تعارف ليس على

(١) الموافقات في أصول الأحكام ٢٣٣/٤ ٢٣٤ بتحقيق عبد الله دراز، طبع المكتبة التجارية الكبرى القاهرة
(٢) تطوير شريعة الأحوال الشخصية ضمن كتاب: نحو مشروع مسقبلي للإسلام لمحمود محمد طه ص ٢٨٠.

المستوى العقدي فحسب، وإنما استثمر أدوات الحوار في شبكة العلاقات الاجتماعية والإنسانية لعلها تذيب بعض الحواجز وتتمرر بعض الرسائل وإن بطريق غير مباشر.

إن هذا الأسلوب المبتكر ليعتبر بمثابة توطيد أرضيات أولية للحوار قبل الخوض في بحره والزز في مأزقه في مواطن الاختلاف ومقاطع الاقتراق، يمكن رصده من خلال وقائع ثابتة في السنة النبوية، وقد خلدته نصوص صحيحة في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم. ويمكن تلخيص أهم المعالم البانية لهذا الجهاز النظري والإطار المرجعي فيما يأتي من النقاط:

أولاً: الرفض المبدئي للعنف وسيلة لمواجهة الآخر

وقد صدر غير مرة الأمر الصريح من قائد الدعوة بمنع هذه الممارسة، هذا بعد ما أؤدي صحابته وتعرضوا للمذلة والتكيل، فأفصحوا عن الضجر مما أصابهم، واشتكوا لرائدهم محمد عليه الصلاة والسلام تلك المعاملة الظالمة، فكان جوابه القاطع منع اللجوء إلى المواجهة المسلحة والاكتفاء بالتعبير عن الحق الذي يعتقدونه مع تحمل العنف، وهذه نماذج من تلك المواقف:

١- عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه "أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة! قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم..."^(١).

٢- في بيعة العقبة لما قال العباس بن نضلة: "...والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا!، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم..."^(٢).

وقد كان هذا التصرف من الحكمة بمكان؛ إذ لو كانت المواجهة بالعنف لكان قد أتى على الطرفين، كما أن أعداء الدعوة كانوا سيستغلون دفاع المظلومين عن النفس إعلامياً وسياسياً ضد الرسول وأصحابه من أجل التشويه والتحريض. وعندها سيفقد المسلمون صفة المظلومية التي نالتهم،

(١) المجتبى للنسائي كتاب الجهاد باب وجوب الجهاد جزء ٣/٦، وفي السنن الكبرى كتاب التفسير باب سورة النساء؛ قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم...} رقم الآية: ٩٣ رقم الحديث: ١١١١٢ جزء: ٣٢٥/٦ والحاكم في المستدرک ٧٦/٢ رقم: ٢٣٧٧، ثم في: ٣٣٦ / ٢ رقم: ٣٢٠٠ وقال صحيح على ش ١ البخاري وأقره الذهبي، قال الدكتور أكرم ضياء العمري: الصحيح أنه على شرط مسلم فقط؛ لأن البخاري أخرج للحسين بن واقد تعليقا فقط: انظر السيرة النبوية الصحيحة ١٥٨/١

(٢) سيرة ابن هشام ٤٣٩/١ - ٤٤٣، بإسناد حسن، ومسنند أحمد ٤٦٠/٣-٤٦٢ عن كعب بن مالك، كما رواه الطبراني في الكبير ٩١-٨٧ / ١٩ رقم: ١٧٤، وصححه ابن حبان في صحيحه: ١١٢/١، انظر الفتح ٢٢١/٧. قال الهيثمي في حق رواية أحمد: إسناده حسن، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، انظر مجمع الزوائد: ٤٥/٦.

ثم يفقدون-تبعاً لذلك- تعاطف الرأي العام، وقد يكون أعدل ما كان سيقال في حقهم وظالموهم على قسط واحد متساو من المسؤولية...

ثانياً: الصبر على العنف الآخر والاكْتفاء بالمقاومة السلمية:

وهذا المبدأ تكرر التوجيه إليه والحض عليه كذلك، وعض الرد على العنف بالصبر على الظلم وترك المطالبة بالحق المهضوم ولو كان بادياً.....ومما يدل لتعاطي هذا النوع من المقاومة:

١- عن سالم بن أبي الجعد قال: "دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم عمار بن ياسر فقال: إنى سائلكم وأنى أحب أن تصدقوني! ناشدتم الله أن تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشاً على سائر الناس ويؤثر بنى هاشم على سائر قريش؟ فسكت القوم، فقال عثمان رضي الله عنه: لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيته بنى أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم. فبعث إلى طلحة والزبير فقال عثمان رضي الله عنه: ألا أحدثكما عنه، يعنى عماراً؛ أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذاً بيدي تنمشى في البطحاء حتى أتى على أبيه وأمه وعليه، يعذبون، فقال أبو عمار: يا رسول الله! الدهر هكذا؟! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اصبر! ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت!"^(١).

٢- عن خباب بن الأرت قال: "كنت قينا في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم. فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث. قال: دعني حتى أموت وأبعث فسأوتى ما لا ولدا فأقضيك..."^(٢).

ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب سيعود إيجاباً على الصابرين، وسيستردون به تعاطف الرأي العام، وهو ما يصب في خدمة المشروع الرسالي للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وهو في الوقت ذاته يسهم في إضعاف موقف من يهضم حقوق المستضعفين في البلد الأمين، وهم من التزموا في أنفسهم بحفظ حقوق المظلومين يوم وافقوا على حلف الفضول.

ثالثاً: القبول المبدئي بالدخول في حماية المشركين

إن طلب الدخول تحت حماية بعض المشركين لهو مرحلة ثانية في إطار التعامل، وهي مرحلة تجسد المبدأ السابق وتعطيه المصادقية العملية. وإن طلب الصحابة بل والنبي عليه الصلاة

(١) رواه أحمد في المسند ٦٢/١ عن عثمان بإسناد رجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ٢٩٣/٩ والطبراني في الأوسط ٣٠٥/٢ رقم: ١٥٣١ بإسناد رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم وهو ثقة كما في المجمع أيضاً ٢٩٣/٩. لكن رواه الحاكم في المستدرک ٤٣٨/٣ رقم: ٥٦٦٦ وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري كتاب البيوع باب ذكر القين والحداد باب: ٢٩ رقم: ٢٠٩١ جزء: ١٨/٣ ومسلم في صفات المنافقين باب سؤال اليهود النبي عن الروح باب: ٤ حديث: ٣٥ جزء: ٢١٥٣/٤ عن خباب.

والسلام حماية الكرام- وهو من عصمه الله- مما ثبت وتظاهرت به الآثار في السيرة المكية، وذلك ما يمكن اعتباره فتحاً لنوافذ التواصل مع هذا المجتمع، وهو في الوقت نفسه تعليم للأمة هذه القيم الحضارية الفاصلة بين حدود الدين والانفتاح والسماحة، ومما يدل لهذا السلوك ما يأتي:

١- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عاد من رحلته إلى الطائف وانتهى إلى مكة "أرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي : أدخل في جوارك؟ فقال : نعم. فدعا المطعم بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمداً فلا يهجه منكم أحداً! فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وولده محدقون به في السلاح حتى دخل بيته"^(١).

٢- عن جابر قال: " كان يتبع الحاج في منازلهم ويقف على القبائل الواحدة تلو الأخرى ويقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قریشاً منعوني أن أبليغ كلام ربي"^(٢).
ويكفي أن يعرف أنه عليه الصلاة والسلام بقي تحت حماية عمه المشرك أبي طالب حتى وفاته.

ومثل هذا التعامل يبقي المسلمين ضمن دائرة "مواطني" البلد الحرام ويضمن حقهم في ذلك، كما أنه يزيد من طمأنينة الناس بأن هؤلاء لا يبتغون لأهل بلدهم الشر بل ولا يفارقونهم كل المفارقة وإن خالفوهم في العقيدة.

رابعاً: المعاملة المدنية

إن المداخلة اليومية مع المشركين والمعاقدة في مختلف أبواب التجارات والمناكحات لمن شأنه وأن يزيل الجفوة بين المتعاملين وأن يبدد الكثير من الوسواس. ولا شك أن عنصر الوفاء بالعقود في معاملات المسلمين اليومية مع عامة الناس عامل قوي في جذب ثقة الآخرين، كما أن عنصر السماحة في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء قيمة إضافية قد لا توجد عند غيرهم. وهذا مدخل كبير للتأمل في أسباب هذه الخصال...ومما يجسد هذه الأخلاق في حسن التعامل الوقائع الآتية:
١- عن خباب بن الأرت قال: "كنت قينا بمكة فعملت للعاصي بن وائل السهمي سيفاً فجئت أتقاضاه فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد! قلت: لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يميئك الله

(١) مختصر سيرة الرسول لابن كثير ص ٨٢.

(٢) المسند للإمام أحمد ٣/٣٢٢، ٣٣٩ عن جابر، وصححه ابن حبان في صحيحه: ١٧٢/١٤ رقم: ٦٢٧٤ والحاكم في المستدرک ٢/٦٢٤، طبعة دار الكتب العلمية، ووافقه الذهبي، وذكر ابن كثير في السيرة ٢/١٩٦ أن إسناده جيد على شرط مسلم. كما أن رجال أحمد رجال الصحيح، فإسناده حسن، انظر فتح الباري ٧/٢٢٢.

ثم يحييك! قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد! فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ (مريم: ٧٧)^(١)

٢- عن عائشة رضي الله عنها -وذكرت حديثها الطويل في قصة الهجرة- أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر "رجلا من بني الدليل، ثم من بني عبد بن عدي، هاديا خريتا... قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاه براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث..."^(٢).

وقد لا يحتاج هذا لتكلف الدلائل فإن المسلمين لم يحضر ببالهم يوما مفارقة مجتمعهم مدنيا، بل الثابت أن مجتمعهم هو من قاطعهم حين تقاسموا على الكفر في خيف بني كنانة^(٣).

خامسا: تقدير بر المشركين

لم يقطع دين الإسلام قطيعة مطلقة بين الإنسان في ماضيه الجاهلي وإيمانه الحاضر إلا في خطاياه وشروره، فطمأنه بأن الإسلام يجب ما قبله، في حين ضمن له الأجر بكل بر قدمه قبل أن يسلم. وهذا الاعتراف بالقيم النبيلة التي يلتقي عندها كل أهل الفطر السليمة ذو دلالة عظيمة على سمو هذا الدين وصلاحه وقدرته على جذب كل ذي بصيرة متعقل، ومن النصوص الدالة على هذا المبدأ:

١- عن حكيم بن حزام أنه قال: قلت: "يا رسول الله! أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أسلمت على ما سلف من خير..."^(٤).

قال حكيم في رواية أخرى: "قلت: فوالله لا أدع شيئا صنعته في الجاهلية إلا فعلت في الإسلام مثله"^(٥).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم.

(٢) صحيح البخاري كتاب الإجارة باب استتجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام... رقم: ٣ حديث: ٢٢٦٣ جزء: ٦٦ / ٣

(٣) صحيح البخاري في الحج باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم مكة رقم: ٤٥ حديث: ١٥٨٩ جزء: ١٩٢/٢ ومسلم في الحج باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر والصلاة به باب ٥٩ حديث: ٣٤٣ جزء: ٩٥٢/٢ عن أبي هريرة.

(٤) صحيح البخاري في كتاب الزكاة باب من تصدق في الشرك ثم أسلم باب: ٢٤ حديث: ١٤٣٦ جزء: ١٤٦/٢ عن حكيم بن حزام، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده باب: ٥٥ حديث: ١٩٤ جزء: ١١٣/١، واللفظ للبخاري.

(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، باب ٣٢ حديث: ١٩٥ جزء: ١١٤/١.

٢- عن أبي سعيد الخدري قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها، وكان بعد ذلك القصاص؛ الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها"^(١).

وليتأمل في هذا الوعد الإلهي والتحريض على الإسلام كيف هو مشجع للمتردد ومطمئن للخائف ومخفف عن الحامل على عاتقه أوزار الجاهلية من دماء وأموال الأبرياء، كيف لا يلجأ على هذا الظل الظليل وبدون حوار ولا جدال!

سادسا: الدعاء للمشركين

وهذا المبدأ غاية ما لا يتصور في عدو لعدوه وضحية لجلاده! وهو منتهى رافة نبي الرحمة بالإنسانية الحائرة، وقد لا يستغرب في هذا النبي أن يطلب من ربه أن يرحم الأحياء الجاحدين لعلمهم يذكرون، لكن قد يستغرب أن يستغفر لبعض موتى المشركين، هذا بغض النظر عن استغفاره لعمه بحكم القرابة، وهذه نماذج من هذه الرحمة:

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حسن إسلام المرء، باب ٣٢ حديث: ١٤١ جزء: ١/ ١٨ عن أبي سعيد. وذكره الدارقطني في غرائب مالك ورواه عنه من تسع طرق. انظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١/ ١٤٠-١٤١، وفتح الباري لابن حجر ١/ ٩٩-١٠٠. وقارن بحديث هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عن أبيه عند البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، باب ٢٤ حديث: ٣٨٢٦ ج ١/ ٢٨١. وانظره في فتح الباري ٧/ ١٤٣.

- ١- عن ابن مسعود أن أبا سفيان أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم- لما أصابهم القحط-فقال: "إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم" (١).
- ٢- عن ابن مسعود أن قريشا لما استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام! فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان، من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ (الدخان: ١٠) . قال: فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله! استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت! قال: لمضر؟ إنك لجريء! فاستسقى، فسقوا... (٢).
- إن هذه المبادئ الستة تعبير صريح وممارسة ظاهرة لا تترك مجالاً للمتشكك في أن المنظومة النبوية مهدت لأسلوب الحوار، وفرشت له نظرياً ومارسته عملياً في آن واحد. ولا يمكن الزعم بأن ذلك أسلوب ظرفي أو عمل مؤقت، فمثل هذه الأساليب إن جاز تبنيتها ظرفياً واضطراراً فلا يتصور أبداً أن تربط بالاعتقاد وأن يغامر النبي الرسول في حق ربه فيقدم وعوداً أخروية للمشركين ويربي أصحابه على الاعتقاد بذلك وهو المعصوم من الخطأ!

(١) صحيح البخاري في كتاب التفسير باب سورة حم الدخان رقم: ٢ حديث: ٤٨٢١ جزء: ٤٦/٦ وكتاب الاستسقاء باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط باب: ١٣ حديث: ١٠٢٠ جزء: ٢٤ / ٢ ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب الدخان رقم: ٧ حديث: ٢٧٩٨ جزء: ٤ / ٢١٥٥ واللفظ له.

(٢) البخاري في كتاب التفسير باب سورة حم الدخان، وانظر أيضاً حديث زيد بن عمرو بن نفيل عند البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. وانظر فتح الباري ١٤٣/٧ .

المبحث الثاني: الممارسة العملية للحوار

في المدخل النظري السابق لم ينحصر الحوار في التخاطب المباشر أو في التواصل الحجاجي، وإنما نظر إلى مختلف أشكال العلاقات التبادلية بين الناس، سواء أكانت بلسان المقال وبلغة الجسد، أم بالتعامل الاجتماعي والاقتصادي وبقية أنواع العلاقات الإنسانية، فاعتبر كل ذلك حواراً أو جزءاً من الحوار أو مدخلاً إلى الحوار. أما التحوار الكلامي - وهو ما سينصب عليه الحديث في هذه الورقة - فقد كان الصورة الأبرز في التجربة النبوية المكية، بل يكاد يكون أسلوبه عليه السلام طوال هذه الفترة الممتدة لثلاث عشرة سنة هو الاشتغال بهذا النوع من الحوار، وهل رسالته إلا كذلك، وهل هو إلا رسول محمل برسالة ومطالب بتبليغها؟ فلماذا تراه وشغله الشاغل له، ليله ونهاره، هو ممارسة عملية البلاغ والبيان، وهي عملية لحمتها وسداها الحوار والنقاش؛ كيف وهذا الخطاب جديد كل الجدة على المتلقين! وهو بعد ذلك خطاب مثير ومؤثر ومستفز! ومثل هذا الخطاب الحامل لهذه القيم الجديدة وهذه العقيدة الجديدة حري بأن يثير ردود أفعال من قبل المخاطبين الذين رأوا فيه ما لم يكونوا يعرفون، وصدموا بما لم يكونوا يتوقعون! وهكذا جاءت ردود أفعالهم إما بالقبول أو الرفض. وهكذا تتكرر العملية، ويحتاج صاحب الخطاب لأن يجيب عن أسئلة متناصلة وشبه متتالية، واعتراضات رافضة... والعملية تحتاج من أجل أن تنجح - لمرجعية مضبوطة ومنهج واضح وأسلوب حكيم؛ تحتاج لأن تكون المرجعية مضبوطة بالوحي لا اضطراب فيها، وأن يكون المنهج معقولاً يفرض احترامه، وأن يكون الأسلوب حكيماً يراعي الظروف المختلفة المحيطة بالعملية...

وحسب الاستقراء البسيط الذي حاول هذا البحث أن يحيط به فترة التأسيس في مكة -معتداً على ما ثبت من النصوص والوقائع في السيرة النبوية- فإن أهم ما رصده من هذه الشواهد التاريخية يمكن بسطه في صورة متكاملة ترسم العملية الحوارية وهي تستكمل بناء شروطها وظروفها الشكلية الخارجية الممهدة لطرح أفكارها في الخطاب والخطاب المضاد، مروراً بمضامين الحوار وكيف تطرح للنقاش وتخضع للأخذ والرد والاستدلال وتحديد المواقف، وانتهاء برصد أهم النتائج العامة المنبثقة عن الحوار التي يمكن في ضوءها - تقويم العملية في شموليتها، وهذا أوان الشروع في استعراض كل هذا.

المطلب الأول: الجوانب الشكلية في العملية الحوارية

الحديث عن الشروط الخارجية في عملية التخاطب ذو أهمية كبيرة قد لا تقل -أحياناً- عن أهمية مضمون الخطاب، لا سيما إذا راعينا الأبعاد النفسية والاجتماعية والإنسانية في العملية. وقد تتضاعف أهمية هذه الأبعاد إذا تعلق الأمر بخطاب إنسان أمي عربي جاهلي... غير أن الداعي

للتركز على هذا الجانب الشكلي هو الإبداع والإنفراد الملحوظ في أسلوب الخطاب النبوي من حيث عمله على إعادة الاعتبار للمبادئ الأخلاقية عموماً، وإلى تخليق الخطاب وحفظ اللسان خصوصاً. وتتزايد قيمة هذه الإضافة النوعية عندما نعلم أن الإنسان العربي يعتمد على لسانه وبلاغته في الدفاع عن نفسه وتلميع جانبه، وكذا في غمط حق مخالفه ومنافره وعدوه، وهو ما أبدع فيه العرب أكثر من غيرهم...

أما الخطاب النبوي الديني فيستمد قوته من ذاته؛ أي إنه يعتمد قوة الفكر وليس فكر القوة، ويمهر ذلك بأدبيات تتأى باللسان عن الفحش والزور والكذب، وتأمركه بكفه وعفه، في التزام تام بتوجيهات مستمدة من مثل قول الحق سبحانه: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة ٨٣) وقوله عز وجل: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل ١٢٥)، كما تحض على احترام الشخص الإنسان واحترام أفكاره ومخاطبته بما يجب إليه المحاور وأفكاره، لينبسط وتتحل عقدة لسانه وهذا بعض ما سنستعرض بعض تطبيقاته النبوية:

أولاً: البحث عن المحاور

إتيان الطرف الآخر ومطارحته الرأي والبحث عن حوار له كان دين النبي عليه السلام، وهو تجسيد لعملية التبليغ؛ فكان هو من يتصدى للناس في تجمعاتهم في مكة، ويقصد إلى حجاج الكعبة في مواسم الحج، ويترصد المعتمرين في أثناء السنة، ويخرج إلى أسواق العرب الموسمية مثل عكاظ ومجنة وذو المجاز... ويسافر أحياناً خارج مكة وخارج الحرم كما فعل في قدومه الطائف... وهذه شواهد على ذلك:

١- عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم " كان يتبع الحاج في منازلهم ويقف على القبائل الواحدة تلو الأخرى ويقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي... " (١).

٢- عندما قدم سويد بن الصامت من يثرب (المدينة) " تصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام... " (٢).

٣- لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة "ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم إلى خير مما جنتم له؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: أنا رسول الله؛ بعثني

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٦/٢، ورواه البيهقي في الدلائل ٤١٩/٢ من طريق الحاكم، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث في المكانين، فإسناد الحديث حسن، انظر السيرة النبوية الصحيحة ١٩٥/١.

إلى العباد أذعوهم إلى أن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي كتاباً. ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن...^(١).

ثانياً: تأليف المحاور

وذلك بإعداده من الناحية النفسية ليتقبل الحوار ثم يقبل عليه، ومن ذلك إشعاره بالاهتمام والحرص على التعرف عليه وعلى أحواله المختلفة، من قبيل سؤاله عن هويته وقبيلته وبلده وحلفائه والمنعة فيهم... وهذا يسلك مع الغرباء القادمين إلى مكة، وهذا متداول في الحوادث التي أثبتتها السيرة المكية:

١- روى ابن إسحاق قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن...^(٢)

٢- وعندما يزول هذا الحاجز النفسي بالتعارف بين الطرفين يخلص النبي عليه السلام إلى الموضوع بأسلوب حكيم أكثر لطفاً وأدباً، يقترح في شكل طلب- فتح الحوار ويقدم نفسه بصفته الرسالية وأنه يريد من الناس أن يسمعوا لما يقول، وخير ما يجلي هذا مقابلته لأبي الحيسر لما قدم مكة ومعه فتيحة من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش...^(٣)

ثالثاً: احترام المخاطب

والمقصود هنا احترام الشخص كإنسان يحس بإنسانيته ومكانته، ويرغب بأن يعامله الناس بما هو أهل له من التقدير، وأن يعترف له بمكانته، إن كانت له مكانة اجتماعية أو سياسية مثلاً. أما احترام الأفكار فيأتي الكلام عليه. ولعل أدل نص على هذه المعاملة المثالية تصرفه عليه السلام مع طاغية قريش وداهيتها عتبة بن ربيعة لما جاء إلى النبي عليه السلام مبعوثاً من قريش وقال: اسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال: يا ابن أخي إن جئت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالا جمعنا لك من

(١) السيرة لابن هشام ٣٦/٢، عن محمود بن لبيد بإسناده حسن، ورواه أحمد في المسند ٤٢٧/٥ والطبراني في الكبير ٢٧٦/١ رقم: ٨٠٥، ورواه الحاكم في المستدرک ١٩٨/٣ رقم: ٤٨٣١ وقال: على شرط مسلم. وأعله الذهبي بالإرسال، وحسن الهيتمي إسناده في المجمع ٣٦/٢ أما ابن حجر فصحه في الإصابة ١٦٧/١.

(٢) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام ٢٧٦/٢.

(٣) سبق تخريجه.

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا شرفناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا تراه ولا تستطيع أن تردده عن نفسك طلبنا لك الطب وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. ولعل هذا الذي تأتي به شعر جاش به صدرك. فإنكم- لعمرى- يا بني عبد المطلب تقدر من الله على ما لا يقدر عليه أحد. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ (فصلت ٣) فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه. فلما سمعها عتبة أنصت له وألقى بيده خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد فيها ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذلك...^(١).

فالرسول عليه السلام يكتنيه، والتكنية نوع احترام ليست كالنداء بالاسم المجرد. ثم هو يهتم به وينصت إليه ويفسح له مجال الكلام حتى أفرغ كل ما لديه بل يستزيده ثم يستقره إن كان قد أتم كل ما يود قوله. وبعد ذلك فقط يبدأ هو بالحديث ويستعرض وجهة نظره ثم يترك للطرف الآخر كامل الحرية في التعامل مع هذا الخطاب.

والخلاصة أن هذا الأسلوب النبوي المنفتح على الحوار والباحث عنه والمشجع عليه إضافة نوعية للفكر الإنساني، تتضح هذه الإضافة عندما نعرف أن قريشا في أول اصطدامها بالدين الجديد لم تكثر بمحاورته البتة، بل قابلته بالتعنت والاستهزاء، وقد قال أشقاهم أبو لهب كلمته الخبيثة، تبا له. ثم كانوا يتواصون فيما بينهم ويوصون رواد الحرم أن لا يكلموا أو يحاوروا محمد بن عبد الله محذرين كل من لقوه: احذر غلام قريش لا يفتنك عن دينك^(٢).

(١) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام ٣١٣/١؛ قال ابن إسحاق: ثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة... وورد موصولا في مسند أبي يعلى ٢٠٣/٢ رقم: ١٨١٢ عن جابر، طبع دار الكتب العلمية، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، انظر التهذيب ١٨٩/١، كما أن فيه ذيال بن حرملة وثقه ابن حبان في الثقات: ٢٢٢/٤، وباقي رجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد: ٢٠/٦. وأخرجه الحاكم مختصرا في المستدرک ٢٥٣/٢، طبعة دار الكتب العلمية، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، انظر مجمع الزوائد ٢٠/٦ وتفسير ابن كثير ٩٠/٤.

(٢) المسند للإمام أحمد ٣٢٢/٣، ٣٣٩ عن جابر، وصححه ابن حبان في صحيحه: ١٧٢/١٤ رقم: ٦٢٧٤ والحاكم في المستدرک ٦٢٤/٢، طبعة دار الكتب العلمية، ووافقه الذهبي، وذكر ابن كثير في السيرة ١٩٦/٢ أن إسناده جيد على شرط مسلم. كما أن رجال أحمد رجال الصحيح، فإسناده حسن، انظر فتح الباري ٢٢٢/٧، وقد رواه أبو الزبير عن جابر معنا لكنه صرح بالتحديث عند البيهقي في الدلائل ٤٤٢/٢.

المطلب الثاني: المميزات الموضوعية في التجربة الحوارية النبوية

إن تحليل مضامين الحوار في الخطاب النبوي المكي-ولا يعنينا هنا الاشتغال بقيم الحوار عند الطرف الآخر- هذا التحليل يبين حقيقة المبادئ المحمولة في هذا الخطاب، كما يبين الأساليب الجدلية المرتكبة لإثبات القضايا موضوع النقاش والأسلوب الاتصالي المختار لتقديمها، وقوة وقعها على متلقيها، وردود أفعالهم الدالة على مستوى هذا التلقي... وهنا ذكر لأهم هذه المميزات:

أولاً: البساطة في الطرح والوضوح في الفكرة:

والبساطة والوضوح عنصران هامان وشرطان أساسيان في إنجاح أي حوار، أما التقييق في الكلام والتفلسف في الخطاب فمن العقد المانعة من التفاهم. وتتضاعف أهمية هذا المبدأ حين يكون الطرف الآخر إنساناً بسيط التفكير فطري التصورات؛ لا معرفة له بالنظريات والعقليات والحجاج المنطقي... ولهذا كانت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام بأسلوب يفهمه كل إنسان، وكانت مطالبه من الناس كلمة واحدة ينطقون بها- وهم يعلمون أنها الحق- وهذه نماذج:

١- قال عمرو بن عبسة السلمي: "كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان. فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً جراً عليه قومه. فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي! فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله! فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد- قال ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به- فقلت: إني متبعك! قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا! ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأنتي...!"^(١)

٢- "عن طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي وعليه حلة حمراء فسمعته يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوه فإنه كذاب. فقلت: من هذا؟ قالوا: غلام بني عبد المطلب. فقلت: من هذا الذي يتبعه يرميه بالحجارة؟ قالوا: هذا عبد العزى أبو لهب"^(٢).

(١) صحيح مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب إسلام عمرو بن عبسة رقم: ٥٢ حديث: ٢٩٤ جزء: ٥٦٩/١ عن عمرو بن عبسة.

(٢) المسند للإمام أحمد ٤٩٢/٣ عن ربيعة الديلي بإسناد حسن، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ٨٢/١ رقم: ١٥٩ عن طارق المحاربي وهذا لفظه، وابن حبان في الصحيح ٥١٧/١٤ رقم: ٦٥٦٢. وصححه الحاكم في

ثانياً: اختيار الأسلوب الأجدى في التأثير

يختلف المستهدفون بالخطاب في خلفياتهم الفكرية ومستوياتهم المعرفية وأحوالهم الاجتماعية وخصائصهم النفسية، فاقضى الأمر من أجل بلاغ مؤثر وخطاب مقنع- تنويع أساليب التخاطب بحسب كل ظرف وكل حالة؛ فقد يقتنع البعض بالبراهين العقلية، وقد يستسلم البعض للأسلوب العاطفي، وقد يستجيب البعض للتحذير أو المناشدة... وكل ذلك ملحوظ في حوارات النبي صلى الله عليه وسلم في الفترة المكية، وهذه مشاهد منها:

١- فعن أبي هريرة قال: "لما أنزلت هذه الآية ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء ٢١٤) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا، فعم وخص فقال: يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد مناف، أنقذوا من النار! يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار! يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار! فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها"^(١).

٢- عن "زهير بن عمرو الهلالي وقبيصة بن المخارق قالاً: لما نزلت ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء ٢١٤) انطلق نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى رضة من جبل، فعلا أعلاها حجراً ثم نادى: يا بني عبد مناف، إني نذير! إنما مثلي ومثلك كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله، فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه!"^(٢)

٣- قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة فصلت على عتبة بن ربيعة اختياراً للخطاب المناسب للشخص المناسب؛ فالرجل غليظ القلب جاحد كفور خبيث، والسورة معالجة مناسبة للموقف وحرب نفسية على طغيانه...

والملاحظ في بعض هذه الأمثلة-ووقع في غير هذه مثل ذلك- أسلوب ضرب الأمثال لقوة التصوير وتقريب الموضوع من أجل تحقيق وقع أكثر. كما يلاحظ نوع من الخطاب المباشر أو الشخصي وذلك بتعيين بطون وقبائل المخاطبين ومناداتهم بأنسابهم بل ومناداة بعضهم باسمه الخاص، وكل ذلك له دلالاته القوية...

المستدرک ٦٦٨/٢ رقم: ٤٢١٩ من طريق طارق أيضاً، ووافقه الذهبي، ورواه أيضاً في ٦١/١ رقم: ٣٩ عن ربيعة بن عباد الديلي ووافقه الذهبي على تصحيحه، قال الهيثمي: رواه أحمد وابنه... وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد رجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد: ٢٠/٦.

(١) صحيح مسلم في كتاب الإيمان باب وأندر عشيرتك الأقربين باب: ٨٩ حديث: ٣٤٨ جزء: ١/١٩٢، عن أبي هريرة، كما رواه عن عائشة هناك وفيه زيادات. ورواه البخاري في كتاب المناقب باب من انتسب إلى أبيائه في الإسلام والجاهلية باب ١٣ حديث: ٣٥٢٦ جزء: ٤/١٩٤ عن ابن عباس مختصراً.

(٢) صحيح مسلم في كتاب الإيمان باب وأندر عشيرتك الأقربين باب: ٨٩ حديث: ٣٥٣، جزء: ١/١٩٣.

ثالثا: القيم في الخطاب الحوارى النبوى

اتضح من بعض ما سبق أن الخطاب النبوى خطاب جديد بكل المقاييس فى الشكل والمضمون، وهذه الجودة هى التى جعلته يتبوأ سويداء قلوب سامعيه، وسر هذا التبؤ هو فيما يحمله من القيم النبيلة التى لم يكن الخطاب الجاهلى يهتبى بها أو يلقي لها بالا، وينحصر الكلام هنا- فى قيمتين مميزتين هما سر التفوق والإقناع:

١- قيمة الصدق، ولعلها أهم ما يبحث عنها فى أى خطاب قبل الحجة والفصاحة وأدب التخاطب- وهى أكبر ما يميز الخطاب النبوى، ومن أصدق من الله ورسوله قبيلا؟ لقد تواترت الشهادات على صدق محمد بن عبد الله بن عبد المطلب حتى قبل النبوة، وشهدت قريش كلها بذلك أمامه إذ جمعهم أول مرة ليلبغهم رسالة ربه فسألهم: "أرأيتم إن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد..."^(١).
وخلدت أم المؤمنين خديجة هذه القيمة معبرة عن هذا الرأى العام القرشى يومها فقالت: "كلا والله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"^(٢).

والشهادات فى هذا الباب كثيرة من العدو قبل الصديق. وقيمة الصدق قد تفسر أيضا بإحساس الإنسان فى داخله بصدقه وبيمانه الكامل بما يدعو إليه، وبحرصه واحتراقه من أجل هذا الهم الذى يئن تحت ثقله. ولهذا تراه وكل علامات الصدق بادية عليه فى أفكاره وتصوراته قبل أقواله وتصرفاته.

فلم يرض عليه الصلاة والسلام أن يسلك السبيل السهل ويقبل الإغراءات لو لم يكن صادقا فى نفسه، ولم يتبن المبدأ الميكيافيلى القائل بأن الغاية تسوغ الوسيلة؛ "لأن ذلك ينافى مبادئ الدعوة نفسها، ولأن المساومة كانت للعدول عن الدعوة، وفى الإسلام: الغاية لا تبرر الوسيلة؛ فالله عز وجل تعبد المؤمنين بالوسائل كما تعبدهم بالغايات، فليس لأحد أن يسلك إلى الغاية التى شرعها الله سبحانه إلا بالوسيلة الشرعية الخاصة التى شرعها الله عز وجل"^(٣).

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير باب سورة تبت يدا أبي لهب وتب، باب رقم: ١١١ حديث: ٤٩٧١ جزء: ١١٤/٦، ومسلم فى الإيمان باب فى قوله تعالى: وأندر عشيرتك الأقربين باب ٨٩ حديث ٣٥٥ جزء: ١٩٤/١ عن ابن عباس.

(٢) صحيح البخارى كتاب التعبير باب وأول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة رقم: ١ حديث: ٦٩٨٢ جزء: ٨٦/٨، ومسلم فى الإيمان باب بدء الوحي باب: ٧٣ حديث: ٢٥٢ جزء: ١٣٩/١ وفيه خصلة: "وتكسب المعدم" عن عائشة.

(٣) فى السيرة النبوية؛ قراءة لجوانب الحذر والحماية للدكتور إبراهيم على محمد أحمد ٨٦، وانظر أيضا: فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ص ٨٥.

٢- قيمة حرية التعبير، وهذه القيمة مما فاجأ به الخطاب الحوارى النبوى المجتمع القرشى القبلى المغلق والمبنى على تراتبية أسسها المقاييس المادية ومعايير القوة والسلطة والجاه والثروة، وأهميتها تكمن فى أنها إذ تعطي الحق لأي فرد أن يعبر عن رأيه فإن قيمة رأيه فى قوة حجته، وهذا يسلب كل قيمة لتلك المعايير. وتتجلى العناية بقيمة الحرية فى الخطاب النبوى فى أنه - وهو من عانى من مصادرة هذه القيمة- يفسح المجال لمحاوره أن يقول ما يشاء قبل أن يسمح لنفسه بالكلام، مهما كان الآخر مخالفا له، بل ومهما كان مناقضا للحقيقة ونطق بالكفر البواح! وهاهي نماذج من محاوراته صلى الله عليه وسلم وهو يصغى لأحدهم يزعم أنه يملك ما يشبه الوحي، وها هو ينصت لبعضهم وهو يرى أنه طبيب معالج يريد أن يطيب النبي عليه السلام مما به!

أ- "عن ابن عباس أن ضمادا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذه الريح. فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي! قال: فلقبه فقال: يا محمد، إنى أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟..."^(١)

ب- لما قدم سويد بن الصامت من المدينة حاجا أو معتمرا "تصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلفل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان- يعني حكمة لقمان - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعرضها علي! فعرضها عليه فقال له: إن هذا لكلام حسن! والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله تعالى علي، هو هدى ونور! فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام. فلم يبعد منه وقال: إن هذا لقول حسن"^(٢).

ولا يحد من إيمانه عليه السلام بقيمة الحرية إلا أن تكون ترمي إلى منعه من حريته هو فى اختيار ما يراه حقا والجهر بذلك:

ج- فعن عقيل بن أبى طالب قال: "جاءت قريش إلى أبى طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا فى نادينا ومسجدنا فانه عنا! فقال: يا عقيل انطلق فاتني بمحمد. فانطلقت إليه فاستخرجته من كيس - يقول من بيت صغير- فجاء به فى الظهيرة فى شدة الحر، فجعل يطلب الفياء يمشى فيه من شدة الحر الرحض. فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم فى ناديتهم ومسجدهم فانت عن أذاهم! فطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يبصره إلى السماء فقال: أترون هذه

(١) صحيح مسلم فى كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة باب: ١٣ حديث: ٤٦ جزء: ٥٩٣/٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٦/٢، ورواه البيهقي فى الدلائل ٤١٩/٢ من طريق الحاكم، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فى المكانين، فإسناد الحديث حسن، انظر السيرة النبوية الصحيحة ١٩٥/١.

الشمس ؟ قالوا: نعم. قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة! فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي قط فارجعوا^(١).

د- ونجد مثل هذا الموقف الاستثنائي كذلك في موقف سعد بن أبي وقاص تجاه رغبة أمه في أن يتخلى عن دينه، فعن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب؛ قالت: زعمت أن الله وصابك بوالديك وأنا أمك وأنا أمرك بهذا. قال: فمكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ (لقمان ٤٤)....^(٢)

استنتاجات

إن تبني أسلوب الحوار مع المشركين في الفترة المكية، كما أنه كان مبدأ واختيارا واقتناعا، هو كذلك كان الأسلوب الناجح التي أتى أكله على أوسع نطاق وعلى أكثر من صعيد:

١- فعلى المستوى الإعلامي استطاع النبي صلى الله عليه وسلم -من جهة- أن ينجح في تبليغ الرأي العام بفكرته، ليس في مكة وحسب، بل في أنحاء الجزيرة العربية بفضل الأسلوب الهادئ. ومن جهة أخرى اكتسب الإسلام تعاطف الناس بفضل سياسة الصبر والسماحة التي أظهرت المسلمين في موقف المظلوم المستضعف المستحق للتضامن معه...

٢- وعلى الأرض- وكنائج عملية لهذا الأسلوب- دخل كثير من الناس للإسلام بفضل المعاملة الأخلاقية والإحسانية للمسلمين، فأبو بكر الصديق، مثلا، "كان رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا... وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله..."^(٣)

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ص ١٣٦، من زيادات يونس بن بكير، وقد تابعه عبد الواحد بن زياد وهو ثقة فرواه كما في المستدرک ٥٧٧/٣، طبعة دار الكتب العلمية. كما رواه البزار في مسنده ١٥/٦ رقم: ٢١٧٠ وقال: لا نعلمه يروى عن عقيل إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد من طريق يونس. ورواه أبو يعلى في مسنده ١٢/١٧٦ رقم: ٦٨٠٤ من طريق يونس أيضا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥/٦: رجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل سعد بن أبي وقاص.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٨/١.

٣- وبهذا الأسلوب أسلم جل الأنصار على يد مصعب بن عمير كذلك^(١).
وأسلمت قبيلة أبي ذر غفار كذلك، وأسلمت قبيلة أسلم بإسلامها...^(٢).

(١) رواه أحمد في المسند: ٣٣٩/٣، ٣٢٢، وصححه الحاكم في المستدرک ٦٨١/٢ ووافقه الذهبي، ورجال أحمد رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد: ٥٤/٦.
(٢) صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي ذر.

خاتمة

بعد هذه الجولة في عالم السيرة النبوية الخاصة بالمرحلة المكية، والتي يبدو البحث فيها تواجهه صعوبات كما شأن هذه المرحلة في التجربة النبوية أيضا يمكن ذكر خلاصات على شكل انطباعات واستنتاجات لعل أبرزها:

- ١- إن المرحلة المكية هي مرحلة تأسيس المبادئ الكبرى في الإسلام...
- ٢- إن هذه المبادئ تكتسي صبغة القطعية والاستمرارية باعتبارها مبادئ خالدة...
- ٣- كانت حرية الرأي من بين ما أسس في هذه المرحلة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد ضحوا من أجلها بالكثير...
- ٤- الحوار وحرية الرأي لا ينفكان والاعتراف بأحدهما يلزم منه الاعتراف بالآخر، ولهذا كان مبدأ الحوار أجلى ما تجسدت فيه الحرية...
- ٥- أمكن استخلاص عدد هام من العناصر أبدع النبي صلى الله عليه وسلم في سلوكها، والتي يمكن اعتبارها مداخل للحوار، أو هي حوار في صور خاصة، مثل التعامل مع المشركين والدخول في حمايتهم إن اقتضى الأمر والدعاء بالهداية لهم...
- ٦- آداب الجدل والمناظرة تجلت في أسمى صورها من خلال تحاور النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين...
- ٧- قيم الإنصاف دون المكابرة والصدق مع المحاور، من بين الصور المتألئة في تجربة النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين...
- ٨- أثبتت التجربة المكية أن الجدل بالتي هي أحسن أعطى ثمارا في نهاية المطاف؛ سواء من حيث اكتساب تعاطف الرأي العام مع المسلمين، أو من حيث اقتناع كثير من الناس بالإسلام، أو من حيث تجنيب طرفي الصراع الوقوع ضحية العنف الذي لن يستثني أيا منهما...
- ٩- كل هذه القيم النبيلة برزت والنبي عليه السلام والمؤمنون يتعرضون لأنواع الحروب الإعلامية والنفسية والاقتصادية، ولم يحل كل ذلك بينهم ولزوم ما يعتبرونه مبادئ دينية...

لائحة المصادر والمراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى ١٤١٢-١٩٩٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، بتحقيق محمد علي الجاوي، طبع دار الجيل بيروت الطبعة ١٤١٢/١-١٩٩٢.
٣. تفسير ابن كثير طبع دار المعرفة بيروت ١٤٠٢-١٩٨٢.
٤. تهذيب التهذيب لابن حجر، الطبعة الأولى، دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد، الهند ١٣٢٥.
٥. الثقات لابن حبان، طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد، الهند ١٣٩٨-١٩٧٨.
٦. دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى ١٤٠٥-١٩٨٥، دار الكتب العلمية بيروت.
٧. سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٨. سنن الترمذي، تحقيق كمال يوسف الحوت طبع دار الفكر ١٤٠٨-١٩٨٨.
٩. السنن الكبرى للنسائي، بتحقيق عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن، الطبعة الأولى ١٤١١-١٩٩١ دار الكتب العلمية.
١٠. سيرة ابن إسحاق، تحقيق محمد حميد الله، نشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريب الرباط ١٣٩٦-١٩٧٦.
١١. السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري، الطبعة الرابعة ١٤٢١-٢٠٠١ مكتبة العبيكان الرياض.
١٢. السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، طبع مطبعة البابي الحلبي ١٣٨٤-١٩٦٤.
١٣. سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبع دار الفكر ١٣٥٦-١٩٣٧.
١٤. صحيح ابن خزيمة تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي بيروت الطبعة ١٤١٢/٢-١٩٩٢.
١٥. صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، طبعة دار الفكر ١٤١٤-١٩٩٤.

١٦. صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى ١٤١٢-١٩٩١ دار الحديث القاهرة.
١٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، بتصحيح محب الدين الخطيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.
١٨. فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الحادية عشرة ١٤١٢-١٩٩١ دار الفكر دمشق.
١٩. في السيرة النبوية؛ قراءة لجوانب الحذر والحماية للدكتور إبراهيم علي محمد أحمد الطبعة الأولى ١٤١٧-١٩٩٦ سلسلة كتاب الأمة طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة قطر.
٢٠. المجتبى للنسائي، بشرح السيوطي وحاشية السندي الطبعة الأولى ١٣٤٨-١٩٣٠ طبع دار الفكر.
٢١. مجمع الزوائد للهيتمي، طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨-١٩٨٨.
٢٢. المستدرك للحاكم طبع دار الكتب العلمية.
٢٣. المستدرك للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا الطبعة ١/١٤١١-١٩٩٠ دار الكتب العلمية بيروت.
٢٤. مسند أبي يعلى الموصلي تحقيق حسين سليم أسد، الطبعة الأولى دار المأمون للتراث دمشق-بيروت ١٤٠٤-١٩٨٤.
٢٥. مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق مصطفى عطا، الطبعة الأولى ١٤١٨-١٩٩٨ دار الكتب العلمية بيروت.
٢٦. مسند الإمام أحمد الطبعة الثانية دار الفكر ١٣٩٨-١٩٧٨ عن المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت.
٢٧. مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٨ مؤسسة علوم القرآن بيروت مكتبة العلوم والحكم بالمدينة.
٢٨. المعجم الأوسط للطبراني بتحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٦-١٩٨٦
٢٩. المعجم الكبير للطبراني، نشر مكتبة العلوم والحكم الموصل الطبعة ١٤٠٤/٢-١٩٨٣ تحقيق حمدي السلفي.

٣٠. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت،
الطبعة ١٣٩٢/٢.
٣١. الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، بتحقيق عبد الله دراز، طبع المكتبة التجارية
الكبرى القاهرة.
٣٢. نحو مشروع مسقلي للإسلام لمحمود محمد طه، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، المركز الثقافي
العربي الدار البيضاء، دار قرطاس الكويت.